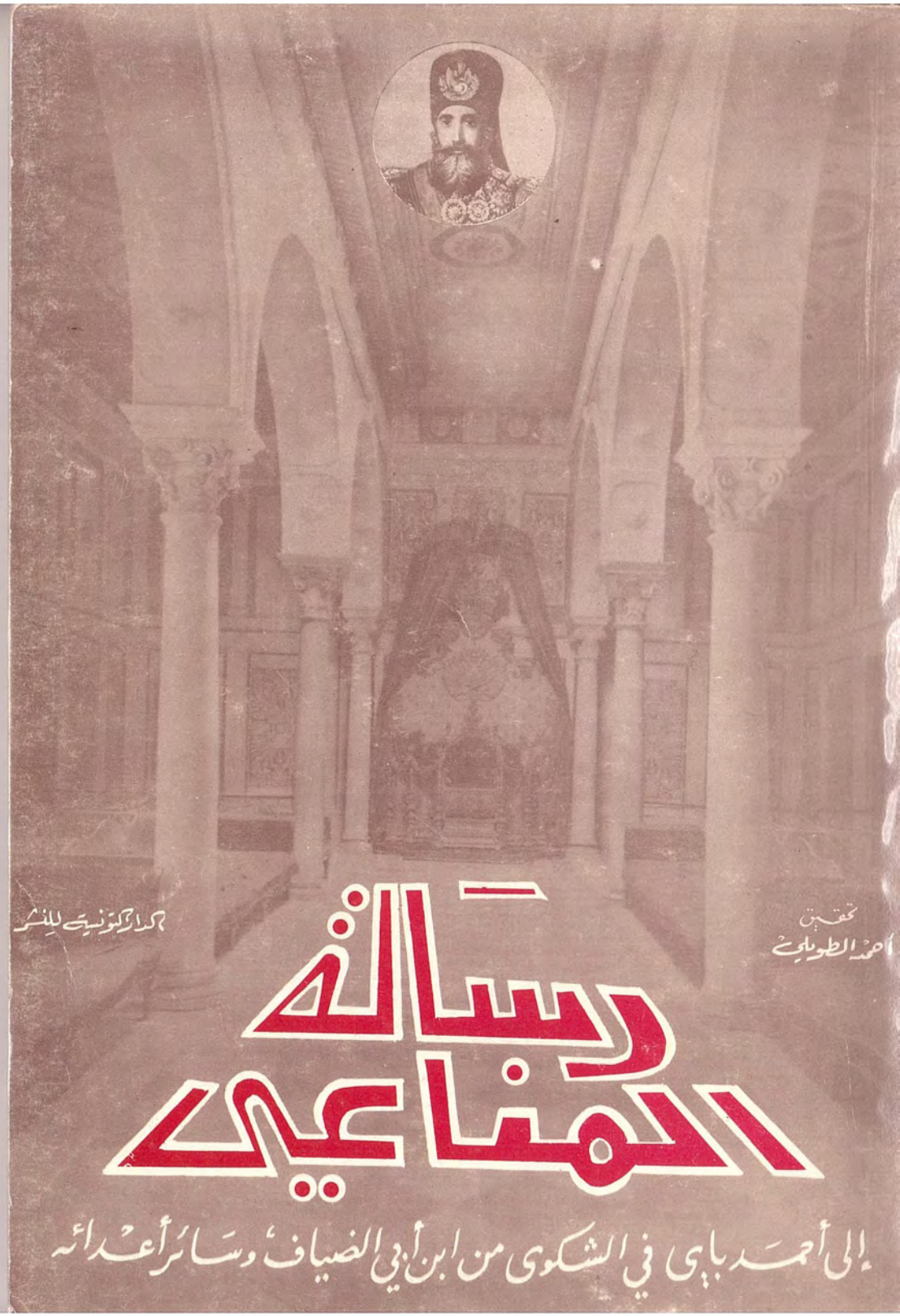

بسم الله الرحمن الرحيم

المناعي وعصره

يتميز العصر الذى عاش فيه المناعى (م. 1857) ، وهو العصر الذى سبق اعلان الحماية الفرنسية على تونس (1881) بولاية وال من أبرز الولاة الذين حكموا تونس فى العهد الحسينى ، وهو المشير الاول احمد باى الذى وجه اليه المناعى رسالته، وقد تولى الحكم على تونس ما يقرب من عشرين سنة ، منذ انتصابه على العرش سنة 1837 ، الى سنة وفاته 1855 ، فطبعها بطابع عصرى ، ووجهها صوب تيار الحضارة الغربية (1) وحرص على دعم أركان الحياة الثقافية بها ، وارساء أسسها الفكرية التى أثرت فى حياة البلاد فكريا واجتماعيا (2).

ويحتل أحمد باى مكانة مرموقة بين البايات ، بداية من مؤسس الاسرة الحسينية سنة 1705 ، الى نهايتها واعلان الجمهورية محلها يوم 25 جويلية 1957 . وقد حكمت هذه الاسرة تونس مدة مائتين واثنتين وخمسين سنة ، وتوالى فيها على الحكم تسعة عشر بايا (3).

J. Ganiage : Les Origines du Protectorat Français en Tunisie PUF - Paris 1959. Publication de l'Institut des Hautes Etudes de Tunis p. : 177 sq.

1) انظر :

2) انظر : ح ح عبد الوهاب : « **خلاصة تاريخ تونس** » ط 1336 خاصة ص 177 ـ 181 .

3) محمد الصالح مزالى : « **الوارثة على العرش الحسينى** » ص 8 ـ 9 الدار التونسية للنشر . 1969 .

ويذكرنا دور المشير الاول فى تاريخ تونس بدور معاصره ، والى مصر ، محمد على (م. 1849) (4) اذ « أخذت به الحكومة فى طور جديد ، وكانت له همة عظيمة ، أكبر من حالة القطر » (5) .

ومن الاصلاحات التى أدخلها على البلاد ، اصلاح التعليم بالجامع الاعظم ، رتب به المدرسين ترتيبا محكما (6) ، وأنشأ فيه المكتبة الاحمدية ، وأثراها بالكتب النفيسة (7) .

وقد أثر أحمد باى فى حياة البلاد الفكرية ، اذ كان يحب العلم ، ويشجع على طلبه ، ويعظم العلماء ويعرف منازلهم (8) ، وكان ولوعا خاصة بفن التاريخ وبالاخص بمقدمة ابن خلدون (9) ، مما جعل كثيرا من الادباء يهتمون بهذا الفن ، وينشطون للكتابة التاريخية ، ويولون المقدمة عناية فائقة (10) ، وحتى المناعى صاحب الرسالة ، فانه لم يسلم من ذلك التأثير ، ونراه يستشهد بابن خلدون (11) ، ويتأثر بمنطقه فى ادلائه بالحجج التى من شأنها أن تدحض ادعاءات أعدائه .

---

4) انظر : جان جانياج : نفس المرجع : ص 177 .
5) محمد بيرم الخامس : «**صفوة الاعتبار**» ج 2 ، 6 .
6) « **الاتحاف** » : ج 4 ، 65 .
7) نفس المرجع : ص 49 .
8) نفس المرجع : ص 179 .
9) نفس المرجع : ص 179 : « واذا ذكرت له مقدمة ابن خلدون يقول لى : نعرفها ويستشهد منها بما يوافق غرضه » .
10) نذكر على سبيل المثال بعض المؤرخين التونسيين الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر : احمد ابن ابى الضياف « **اتحاف اهل الزمان ، باخبار ملوك تونس وعهد الامان** » .
الباجى المسعودى « **الخلاصة النقية فى امراء افريقية** » .
محمد ابن سلامة « **العقد المنضد فى اخبار المشير احمد** » وهو مخطوط .
11) « **رسالة المناعى** » : ص 96 .

فكان هذا العصر عصرا علميا ، ازدهر فيه الادب بفنيه شعرا ونثرا (12) .

ويمكن أن نعد أهم حدث ثقافى فيه هو افتتاح مدرسة باردو الحربية يوم 5 مارس 1840 (13) ، وهى مدرسة عصرية جلب لها الباى جماعة من الاساتذة الاجانب من ايطاليا وفرنسا وانقلترا ، وأدخل فيها تدريس العلوم العصرية والكونية من رياضيات وطبيعيات ، ومدفعية ومختلف الفنون الحربية ، واللغات كالفرنسية والايطالية ، وولى فيها تدريس العربية الشيخ المصلح محمود قابادو (1802 ـ 1861) (14) ، وقد مكنه منصبه التعليمى فى المدرسة الحربية من أن يبث فى اطارات الجيش التونسى الوعى الدينى وأن يحض طلبته على تلقى العلوم الكونية والرياضية (15) .

وقد بعثت هذه المدرسة بدماء جديدة فى شرايين الثقافة التونسية اذ كانت مركزا لترجمة الكتب الفنية ، ونقطة التقاء بين ثقافة الغرب العصرية ، وثقافة تونس التقليدية ، والتقى فيها اساتذة اجانب باساتذة تونسيين وتلامذة .

---

12) توجد كنشات عديدة بدار الكتب الوطنية تحفل بالاشعار الراجعة الى هذا العهد لا تزال مخطوطة ، وهناك ايضا دواوين مازالت تنتظر التحقيق والطبع . جمع بعضها محمد السنوسى فى اجزاء .
13) **الاتحاف** : ج 4 ، 36 ـ 37 .
14) نفس المرجع .
15) انظر الجزء 2 من « **ديوان محمود قابادو** » ، تونس . د. ت. : ص 33 ـ 60 : ديباجة لترجمة تاليف فرنسى فى اصول الحرب ، ذكر فيها قابادو نظريته الاصلاحية وآراءه الجديدة .

ويحدثنا صاحب الاتحاف ، أحمد بن أبى الضيـاف ، عن هـذا المعهد فيقول (16) :

« رتب الباى مكتبا حربيا بباردو ، وجعله فى صرايته التى انتقل منها الى قصره الجديد ، لتعليم ما يلزم العسكر النظامى من العلـوم كالهندسة والمساحة والحساب وغيرها ، ولتعليم اللغة الفرنساوية ، لان أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة . ورئيسه العالم الماهر الامير آلاى كالى قارس ، من أعيـان ايطاليا . وجعل به معلما للقـرآن ومدرسا لعلوم العربية وما يلزم ديانة . وأول مدرس به العالم الشريف الاديب البليغ أبو الثناء محمود قابادو . بحيث يخرج التلميذ عالما بما يلزمه ضرورة فى غير العلوم العسكرية ، متضلعا باللغة الفرنساوية وبما يلزم العسكر من العلوم العقلية » .

وكان الباى يزور بنفسه تلامذة هذه المدرسة « يرغبهم فى اكتساب المعـارف التى هى آلـة التقـدم الحقيقـى ، وينفـرهم من معـرة الجهـل ... » (17) .

وقد شهد ابن ابى الضياف نفسه بازدهار الحياة الثقافية بهـذا العصر رغم نقمته على الباى ، وانتقاده الذريع لسياسته وحكمه المطلق غيـر المقيد بشـرع أو شـورى ، وتصرفـه الاقتصـادى المقيت ، المـزرى (18) .

16) **الاتحاف** : ج 4 ، 36 – 37 .
17) نفس المرجع .
18) انظر الجزء 4 من « **الاتحاف** » ، و « **العنوان** » ج 2 – 130 – 131 .

قال ابن أبى الضياف :

« وفى هذه الايام ، نفق سـوق العلم ، وتجدد شبابه ، وسـال سيله ، وعب عبابه ، وانفتح للاجتهاد بابـه ، وتظاهرت اسبابـه ، واشرقت بافق هذه الحاضرة نجوم وأهلة ، هم الآن شموس وبدور ، تتجمل بها المحافل والبدور » (19) .

وثمـة ظاهرة أخرى نـلاحظها بهذا العصـر وهى بروز التـرف والتبذير والانفاق باسراف على اللباس والعيش والملذات ، والتأنق فى المظاهر (20) .

يقـول ابـن أبـى الضيـاف : « ومـن أيامـه ابتـدأ التـأنـق والترف فى الكراريس والابنية الضخمة ، وغير ذلك مما يدعوه ترف الحضـارة ، والنـاس على دين أمـرائهم [. . .] وجعل نـواشين الافتخـار » (21) .

وفعلا ، فقد سلك الباى ومن تبعه من الوزراء والكتاب ورجـال القصر ، سياسة التبذير والاسراف ، وهى سياسة لا تتناسب مع موارد الدولة (22) .

19) « **الاتحاف** » ج 4 ، ص 67 .
20) E I 2 فصل احمد باى .
21) « **الاتحاف** » ج 4 ، ص 167 .
22) E I 2 فصل احمد باى .

وقد اتهم المناعى بالاسراف (23) ، وليس بالبعيد ان تكون هذه التهمة شائعة فى أوساط الاعيان ، والمقربين من الباى ، اذ تعود الكثير منهم على اثقال أنفسهم بالديون ليسدوا هذه الرغبة (24) .

وتوجد ظاهرة أخرى بهذا العصر وهى ظاهرة تعدد المجالس الادبية كانت تنتظم فى قصور الامير أو فى قصور الخاصة .

فقد بدأ الباى عهده ، منذ الايام الاولى من ولايته ، ببناء القصور الفخمة بباردو (25) وحلق الوادى ، والمحمدية أنفق فيها الاموال الطائلة التى استنفدت معين الخزينة العامة ، وتألفت بمجالس الامير فى هذه القصور جماعة يأنس اليها الباى ويتألفها (26) تلتقى فى اجتماعات أدبية وفنية وغنائية ، وكثيرا ما كانت تصل اليه فيها الوشايات والسعايات ولكنها كانت لا تحركه (27) .

ولئن كانت رسالة المناعى صدى لهذا العصر، فهى خاصة مرآة لما كانت تتخبط فيه الدولة والبلاد من ضيق مالى ، وتدهور اقتصادى ،

23) انظر « **رسالة المناعى** » : ص 143 .
24) نفس المرجع . ص 124 ، كانت الديون آفة ذلك العصر ، وكأن الغرماء كثيرا ما يطلبون من الدولة الدين او تفليس المدين وسجنه . انظر اعلان فلسة حسين خوجة « **الاتحاف** » ج 4 ، ص 38 ، حتى ولى العهد لم يسلم من الديون. نجد الباى احمد فى مرضه يدفع مالا ذا بال فى دين على ابن عمه وولى عهده ، للوافدين من التجار : (نفس المرجع ، ص 167) .
25) « **الاتحاف** » ج 4 . ص 16 .
26) نفس المرجع ص 175 .
27) نفس المرجع ص 169 .

وتأزم فى الميزانية ، ويرجع هذا الامر الى أن الباى قد استنفد أموال الدولة فى جمعه للعسكر النظامى وترتيبه وتدريبه، وانفاقه المسرف على القصور والخاصة مما أجحف بدخل المملكة وخرجها (28) ، ومما جعله يحدث ضرائب ومكوسا ، تعسف العمال وملتزمو الاداءات والوكلاء أيما تعسف فى جبايتها . ويصور لنا الجزء الرابع من «الاتحاف» تصويرا دقيقا ما منى به الشعب فى كامل التراب التونسى من ظلم وحيف وقهر .

28) نفس المرجع ص 169 .

حياة المناعي

ليس لنا ترجمات لحياة المناعي سوى نصين قصيرين : نص وارد في الجزء الثامن من الاتحاف (29) ، وهي ترجمة قصيرة ، موجزة ، لا تتجاوز السطور القليلة ، غمط فيها ابن أبي الضياف حقه ، بينما خص الوالد بترجمة طويلة ، ضافية ، ذكر فيها أساتذته وحدثنا عنه باطناب (30) . ونص آخر جاء في مجمع الدواوين التونسية لمحمد بن عثمان السنوسي وهو مخطوط (31) ، ولهذا النص أهميته لان صاحبه يعد المناعي من أهم شعراء تونس في القرن الماضي وذلك برصفه بينهم ، ومن جهة أخرى فهو يثير قضايا كثيرة ، اذ يتهم المناعي بتهم عديدة كالمجون وسلاطة اللسان وانتحال الشعر ! . .

أما الرسالة الادبية التي نحققها ونعلق عليها ، فلا نجد لها ذكرا في أي مرجع من المراجع ، فحتى المنتخبات الادبية التي جاءت بعده لم تتعرض لها أو لصاحبها ، ونعجب للرجوم حسن حسني عبد الوهاب كيف لم يذكرها مع أن له منها مخطوطين .

وصاحب الرسالة أصله من أولاد مناع من دريد (32) ، واسمه

(29) « **الاتحاف** » ج 8 ، 103 .
(30) نفس المرجع : ج 7 ، 164 ، 166 .
(31) « **مجمع الدواوين** » ج 1 ، ص 154 ـ 163 ، مخطوط رقم 16.628 .
(32) « **الاتحاف** » ج 7 ، 164 .

محمد وأبوه محمد أيضا ، وجده سليمان ، ويكنى بأبي عبد الله كعادة تكنية الاسماء في القديم ، ويدعى حمدة تمييزا له عن أبيه ، أو حتى محمد حمدة كما في بعض الكنشات (33) . ونجد المؤلف يثبت اسمه في آخر الرسالة هكذا : « والسلام من [. . .] محمد بن محمد المناعي » (34) .

لم يذكر أحد تاريخ ولادته ، أما وفاته فقد ضبطها ابن أبي الضياف بشعبان من سنة 1273 (مارس ـ أفريل 1857) (35) . ولم يذكر السنوسي سنة الوفاة . ونحن نعتقد ان هذه السنة صحيحة لان المناعي من أقرباء ابن أبي الضياف وزوج أخته ولا يمكن لصاحب الاتحاف الحريص على ضبط الوفيات ان يخطىء في تدقيق سنة وفاة صهره .

فالمؤلف اذن قد عاش النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وسبع سنين من النصف الثاني ، عاش جلها في عهد المشير الاول أحمد باي (م. 1855) وعامين في مدة المشير الثاني محمد باي (م. 1859) . وتوفي المناعي قبل اندلاع ثورة ابن غذاهم سنة 1864 (36) ، وقد عاصر بوادرها ، وشاهد بنفسه اسبابها ، وعاين بداية الفوضى التي سادت بالبلاد فيما بعد واستفحل أمرها وعاني منها في حياته معاناة مرة .

(33) انظر « **كنش الرياحي** » (الفهرس) . رقم 18.906 .
(34) انظر « **رسالة المناعي** » ص 160 .
(35) « **الاتحاف** » ج 8 ، 103 .

فقد عرف المناعى أسباب افلاس الدولة من عبث المتصرفين فى أموال الدولة ، وسرقاتهم ، ونهبهم المقيت ، وتراكم الديون على الخزينة العامة ، وارهاق كاهل المواطنين بالضرائب والمكوس العديدة والمتنوعة (37) ، والتى تفننوا فى تنويعها وتفريعها وتعميمها ، ونقرأ صداها فى الرسالة ، لانها لم تكن الا وليدة لتلك البيئة الفاسدة التى اشتد فيها التعدى على الحقوق العامة ، وكثرت الشكاوى من المقربين الى البلاط ، وعم البلاد شر العمال والوكلاء والملتزمين والنواب (38) . اذ سلم لهم الباى مقاليد الامور ، وتغافل عن حيفهم وعسفهم ، ولحق أذاهم المناعى ، فكتب يشكوهم . ويندد بهم ، يفور عليهم سخطا وحقدا وثورة ، رغم مكانتهم المرموقة ، وما يتمتعون به من جاه ، وقوة ، وبطش ، وكان المناعى يعبر فى هجائهم ونقمته عليهم عما فى قرارة نفوس الشعب ، فكان اللسان الصادق ، المؤثر الذى يصور غضب الشعب ، ونقمته ، وطموحه .

ونحن لا نشك فى أن أصحاب النفوذ وذوى الجاه فى ذلك الوقت ومن بعده قد تحالفوا على اسكات هذا الصوت الناشز ، وقرروا تجاهله ، وضروبوا عليه جدارا من الصمت والنسيان ، فلا نعلم شيئا عن حياة المناعى سوى أنه نشأ بين يدى أبيه فأحسن تربيته (39) ،

36) انظر : جان جانياج : الكتاب المذكور ص 217 — 274 . وترجم هذا الفصل الخاص بثورة على بن غذاهم لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية ونشر سنة 1965 . (الدار التونسية للنشر) .
37) « **الصفوة** » ج 2 ، 4 ، « **والاتحاف** » ج 4 .
38) « **الاتحاف** » ج 4 ، 144 .

وانه حفظ كثيرا من المتون والشروح وقرأ على أبيه وعلى أعيان من المدرسين ولكن لا نعلم من هم ولا ما هى هذه المتون والشروح ! . .

ونعلم كذلك انه دخل ديوان الانشاء فى حياة أبيه (40) فى عهد حسين باى (م. 1835) ، ولكن نجهل الوظائف التى تقلدها فيه ، خاصة وأن ديوان الانشاء يعتمد خططا عديدة منها الكتابة والحساب (41) ، ونجد فى الرسالة اشارات عديدة الى ما تولاه المناعى من وظائف وخدم برئاسة باش كاتب محمد الاصرم (م. 1861) (42) قد أنعم بها عليه هذا الاخير ، لكنه خرج منها مطرودا .

فقد كان مكلفا بمداخيل الولايات ، بقسم الحسابات وسرعان ما رمى فيه بتهمة السرقة والنهب وبصرف ما تحصل من فاضل المال من الولايات فى تسديد بعض ديونه ما مقداره نحو الالفى ريال وفى تبذيرها فى لذاته ومتعه (43) .

كما اننا نفيد من الرسالة ، انه كان مكلفا بالمساجد اذ كانت بيده أوامرها ، ولعل هذه الوظيفة كانت تابعة لادارة الاوقاف ، خاصة منها القسم المكلف بأحباس المساجد .

39) نفس المرجع ج 8 ، 103 .
40) نفس المرجع .
41) « **الصفوة** » ج 2 ، ص 2 .
42) « **رسالة المناعى** » : ص 121 وما بعدها .
43) نفس المرجع : ص 144 .

لكن هذه الوظائف تخلى عنها ، « ولم يصح منها فيما بعد سوى تسويد الصحائف » (44) ، ويحتج المناعى بأنه مظلوم وان الاصرم تسبب فى طرده .

بيد أن ابن ابى الضياف ، فى ترجمته المذكورة له يذكر أن سبب انفصاله عن الكتابة فى آخر حياته انما كان « لعدم مواظبته الخدمة » (45) ، ورغم ذلك فقد شهد صاحب الاتحاف ببراعة المناعى فى الكتابة وجمال الخط .

ونستنتج من هذا أن نكبة المناعى كانت فى أواخر حياته ، اذ تألب عليه أعداؤه ، وتعاضدوا على هتكه وتحطيمه بعد أن كان مقربا من بعض أفراد الاسرة الحاكمة خاصة ولى العهد ، قائد المحال ، وقد سافر معه فى كثير منها ، فأصبح بائسا ، فى حالة يرثى لها ، هو وأولاده .

ويذكر صاحب الاتحاف بؤس المناعى فى أواخر حياته وتعاسته فيقول : انه « عاش حليف اقلال واعسار » (46) وتوفى فقيرا .

وهذه الحالة التعيسة هى التي دفعته الى تحرير الرسائل المتعددة الى أصحاب الامر ، يلتمس فيها منهم بعض الخدم .

---

44) نفس المرجع : ص 124 .

45) « **الاتحاف** » ج 8 ، 103 .

46) نفس المرجع .

قال فى رسالة الى مصطفى خزندار ، متضمنة بكنش رقم 17878 :

« تعذرت على طرق الكسب والاحتيال ، وضاق علينا الحال ، ولو اطلعتم على باطن حال الاولاد والعيال ، وما يقاسونه من نكد العيش بعد التوسع والدلال ، لغلبتكم دموع الشفقة والرحمة ، واستفزتكم بواعث الهمة ، فان للخدام حقوقا يحفظها مثلكم ، ويرعاها فضلكم ، واضاعت اولادهم مما تشين ، ويأباها الحسب والدين ، ولى منذ أعوام نتردد على بابكم ، ونترامى على تراب أعتابكم ، فلم استنشق ريح اقبال ، ولا واقع حالى منكم ببال ، مع أنى ما طلبت غاليا ، ولا حاولت حاليا ، وانما نطلب تنظمنى فى سلك خدمك ، وتستعملنى فى صغار خدمك ، أو تضعنى فى أتباع أحمد زروق ، أو سيدى فرحات أمير لواء (47) ، فالكل على حد السواء ، فجميعهم فى خدمتكم ، ومستمد من نور حرمتكم ، ونظركم أعلى ، وبكل جميل أولى » .

وتفيدنا هذه الرسالة افادة جليلة عما عاناه المناعى فى آخر حياته من الادقاع ، وبؤس الحال ، مع كثرة الاولاد ، اذ ضاقت فى وجهه أبواب الرزق وأغلقت ، وأطرد من خدمته ، وأقصى عن ديوان الانشاء ، ظلما واجحافا .

ويمكن اعتبار هذه الرسالة وثيقة هامة عن حياة المناعى اثر انفصاله من ديوان الانشاء ، اذ بقى أعواما عديدة بدون عمل ، وكان يحاول بدون جدوى أن يجد خدمة يرتزق منها .

---

47) امير لواء العسة على صراية الباى من العسكر .

فقد كان منعما برضاء محمد الاصرم ، رئيس ديوان الانشاء ، فربه اليه ، وأسكنه بجواره فى علو داره ، لكن سرعان ما قلب له ظهر المجن وقلاه ، وأقاله من خدمه العديدة .

وفى رسالة أخرى (48) موجهة الى أمير لواء العسة فرحات يقول انه قد ضاقت به سبل العيش فى بلاده ولم يجد بها متنفسا ولا مكانا رحبا :

« ولولا العوائق التى حالت بينى وبين المراد ، وضيقت على رحب البلاد ، للففت العزيمة وهاجرت ، واعملت الرحلة وسافرت » (49) .

وكان هدف رسائله ، يتمثل فى طلب الخدمة :

« وغاية رجائى أن تشرفنى ببعض خدمك ، وتنظمنى فى سلك خواص خدمك ... » (50) .

ويبدو ان المناعى لم يبعث رسالته الادبية الى المشير الاول الا بعد أن استنفد كل الوسائل ، ويئس من الجميع ، وحتى من الحياة ، وبرم بالعيش ، وتشاءم ، ونقم على الناس أجمعين ، خاصة على الكتاب ، وموظفى ديوان الانشاء وكل من يتمتع فى عهده بمنصب من

48) الكنش رقم 17878 ، ص 4 .
49 – 50) نفس المرجع .

عدول وقضاة وكتاب ... وأحس بنفسه مضطهدا ، مظلوما ، لا سيما وان غيره من الموظفين لم يكونوا فى مكانته ، ولا فى مقدرته الكتابية وبراعته وذكائه .

قدم الشيخ السنوسى المناعى بقوله انه « أحد أعيان الكتاب ، وغرة جبهة الآداب ، المجيد فى النثر مع طول الباع ، المنفرد بفصاحة اللسان وكثرة الاطلاع » (51) .

لكن ما لبث المترجم ان وصفه بأوصاف ترجح الكفة ضده وتكشف لنا عن بعض الاسباب التى ألبت عليه أعداءه وحساده :

« غير انه بطر وأشر ، وأكثر من الهذر ، واستولت عليه من الاهوية الجنون ، فأكثر من المجون » (52) .

وفعلا فقد اتهم بتهمة المجون ، وشاع فى البلاد انه بالغ وأغرق فيه ، ونفر من زوجه ، اخت ابن أبى الضياف ، وكان المؤرخ يشكوه دائما الى الباى فيغض الطرف عنه (53) .

51) السنوسى : « **مجمع الدواوين** » ج 1 ص : 145 – 163 .
52) نفس المرجع .
53) سمعت بعض النوادر ، فى شان علاقته مع زوجته وصهره احمد بن ابى الضياف . سأله الباى عن سبب نفوره من زوجه وعن الخلاف بينهما فاجاب : « زوجتى هى احمد بن ابى الضياف لابسا قوفية » فضحك الامير . اذ كان احمد بن ابى الضياف قميئا غير جميل . (والقوفية : غطاء للراس كان يضعه النساء بتونس فى القرن التاسع عشر) واخت ابن ابى الضياف التى تزوجها المناعى هى « ددو » وابنتها « محبوبة المناعى » تزوجت محمد العزيز بوعتور ولم تعقب . و « ددو » تزوجها بعد المناعى محمد بن عثمان جعيط .

وقدم لنا السنوسى صورة لمجلس من المجالس التى يحضرها المناعى (54) :

« فكان اذا حضر المجالس لن ترى غير الآذان منصتة ، لفصيح أجوبته المسكتة ، والقلوب ترجف من وقاحته ، والناس مع تحذرهم منه يميلون لفصاحته ، فكان لمحاسن آلاته ، يلبس على علاته ، ولسعة روايته ، يصبى الى رويته ، لخلبة عارضته ، يرغب عن معارضته » .

ونفيد من ترجمة السنوسى أيضا أنه كان سخى اليد ، كريما جدا ، « حتى انه كان أعطى برنسه من أعلى كتفيه لعدم وجدانه ، عندما قصده بعض الناس ، بمشموم فل حين أبانه ، وبقى من أجل ذلك فى بيته مقيما ... » (55) .

وهذا يفسر لنا أيضا سبب تبذير المناعى وافراطه فى صرف المال فى حاجاته وملذاته وسخائه على قاصديه .

والـــده :

لئن كان صاحب الاتحاف قد خص الابن بأسطر قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فانه أطال فى ترجمة حياة الوالد (56) . كما أننا نجد ترجمة أخرى له فى شجرة النور الزكية (57) .

54) « **مجمع الدواوين** » : ج 1 ، ص 154 ـ 163 .
55) نفس المرجع .
56) « **الاتحاف** » ج 7 ، 164 ـ 166 .
57) « **شجرة النور الزكية** » : ج 1 ، ص 370 .

وهو أبو عبد الله محمد بن سليمان المناعى توفى سنة 1247 هـ /1831 ـ 1832 م ، وكان من الشخصيات العلمية البارزة فى عصره ، تولى الكتابة فى ديوان الانشاء ، فى ولاية حسين باى (تولى الحكم من 1824 ـ 1835) ، واضطلع بالتدريس بجامع الزيتونة فتخرج عليه نخبة من العلماء والادباء مثل أحمد ابن أبى الضياف ، ومحمد النيفر (58) ، وخاصة ابنه حمدة « رباه تربية حسنة ، وسلك به طريق العلم » (59) .

وله تآليف مهمة منها رسالة فى الوباء واسمها « تحفة المؤمنين ومرشدة الضالين » ألفها لما وقع الطاعون بتونس ونواحيها ، وعم غواشيها وضواحيها ، وهى رسالة فقهية ، تتضمن أحكام الطاعون ولها صبغة جدلية تدل على تبحره فى الفقه وأصوله ولا تزال مخطوطة فى دار الكتب الوطنية تحت رقم 11.856 (60) .

ويعلمنا ابن أبى الضياف أن له رسالة فى الوفاء ، ألفها بطلب من مخدومه حسين ، « ومن طالعها عرف مقداره » (61) ، ولم نعثر على هذه الرسالة ، ولعلها عند بعض الخواص ، وربما نسج على منوالها ابنه فى رسالته هذه الى أحمد باى ، ولا يبعد أن يكون قد تأثر بها الى حد بعيد ، وقد علق ابن أبى الضياف ملاحظا أن الابن

58) انظر ترجمته فى « **الاتحاف** » : ج 8 ، 111 ـ 114 .
59) نفس المرجع : ص 103 .
60) وانظر « **شجرة النور الزكية** » : 370 : ورد فيها ذكر رسالة جدلية بين المناعى الاب وشيخ الاسلام الحنفى محمد بيرم .
61) « **الاتحاف** » : ج 7 ، ص 165 .

« أربى فى الصناعة الادبية على والده ، لو ساعده البخت » (62) .

وتلقى الوالد العلم بجامع الزيتونة على أيدى أشهر أساتذتها منهم صالح الكواش واسماعيل التميمى وابراهيم الرياحى وحسين الشريف وأحمد بوخريص ، ثم رحل الى المغرب الاقصى (63) ، فأخذ العلم بفاس على ايدى شيوخ مغاربة يذكر ابن أبى الضياف ومحمد مخلوف صاحب « شجرة النور الزكية » اثنين منهم وهما التاودى (64) واليازامى (65) • وتمكن هنالك من الاتصال بصاحب الطريقة التجانية ، أحمد بن سالم التجانى (1737 ـ 1815 م) ، ولازمه وأخذ عنه مباشرة ، وصار من أتباعه ، يختلف كل يوم جمعة الى زاوية الولى يتغذى بتعاليمه، ويتشبع بالاوراد والاذكار ، ثم قوى الجاذب الروحانى الذى يربطه بالشيخ التجانى ، وتأثر به تأثرا سيكون له صدى فى تربيته لابنه .

واثر رجوعه الى تونس ، وانتصابه للتدريس بالجامع الاعظم ، قام بخطة الشهادة والتوثيق ليرتزق منها ، وتقدم للشهادة على جامع صاحب الطابع (66) ، واتصل بالباى حسين ، وتقلد مهمة الكتابة لديه وسافر معه فى محاله عندما كان ولى عهد .

---

62) « **الاتحاف** » : ج 8 ، ص 103 •
63) « **الاتحاف** » : ج 7 ، ص ، 166 •
64) هو محمد بن الطالب الفاسى التاودى ، فقيه ومفسر ومحدث (م• 1793) ، انظر : كحالة ، « **معجم المؤلفين** » : ج 10 ، 96 •
65) هو محمد بن عبد السلام اليازمى • هناك اختلاف فى حركة الزاى • انظر : « **شجرة النور الزكية** » ، ص 381 ـ القاهرة 1349 •
66) «**الاتحاف** » : ج 7 ، ص 165 •

ونجد فى الاتحاف أوصافا له كثيرة منها أنه كان طويل اللسان ، ثابت الجنان ، بعيدا عن الملق والخضوع ، يعارض الامير والمأمور (67) •

وتوفى وداره مرهونة فى مال نفس به على صاحبه (68) .

---

67) نفس المرجع • ، ص 165 •
68) نفس المرجع : ، ص 156 •

آثاره ورسالته

عرف المناعى شاعرا وناثرا . لكننا لا نجد للمناعى الا أشعارا قليلة ، اتهم فيها بالانتحال (69) . يذكر السنوسى أن : « القصائد المشتهرة عليه أربع، روائع الفصاحة فى رياضها رتع » (70) . قالها خاصة فى التهانى والمدح :

الاولى فى تهنئة باش كاتب محمد الاصرم ، عارض بها قصيدة لابن الجهم ، وأولها :

ليالى الحمى، لله ما هجت فى صدرى لقد قلبت ذكراك قلبى على الجمر

والثانية فى مدحه أيضا وأولها

أما لشؤون العين بالدمع لا تهمنى فيشفى عليلا مستهاما من السقم

والثالثة فى شكر نعمة أسداها له باش كاتب ، وهى أحسنها لصدقها وواقعيتها :

كفاك يا سقم ما أنهكت من بدنى أفوق ما نلت من ضعفى ومن وهنى
ويا زمان لحى عودى مماطلة رفه على ، لحاك الله ، من زمن
أخنى على الجسم بل أودى بساكنه فليس يلوى الى أهل ولا سكن
ألقى بوجهى لأوباش سفاسفة أربى طلابيهم منى على محن
[...] منابت وأصول غير زاكية تزهو كنابتة الخضراء فى الدمن

69) « **مجمع الدواوين** » : ج 1 ، ص 155 ـ 163 .
70) نفس المرجع : 154 . وأشعاره توجد أيضا بكنش الرياحى رقم 18909 ، ص : 140 ـ 148 . والقصائد الاولى من كنش المناعى رقم 16589 .

ومقدمة هذه القصيدة تذكرنا برسالته الى أحمد باى ، ولها صلة متينة بها .

أما القصيدة الرابعة فهى فائية فى مدح باش كاتب أيضا ومطلعها :

أبى القلب أن يصحو هوى المقل الوطف
فيا لك قلب ما دعاه الى الخلف

ويذكر السنوسى له ، بالاضافة الى هذه القصائد ، قصيدتين أخريين : الاولى عارض بها قصيدة لمحمد الاصرم باش كاتب ، لكنها مختلفة عنها ، اذ بينما وعظ باش كاتب الامير بالصبر والعدل وحذره من مكائد بعض الوزراء ووصاه بوصايا سياسية كثيرة (71) ، نجد المناعى يضمن قصيدته وصايا من نوع آخر فى التمتع بالحياة :

[...] واحرص على فرص اللذائذ كلها
فقد آذن الميقات بالايناس
واشرب على ضوء الهلال فقد بدا
بين السراول فى ضياء الآس . . .

وهناك أبيات أخرى نظمها فى واقعة حال ، يخاطب فيها أحمد بن أبى الضياف يلومه على ابعاده عن مجالس الانس التى كان يعقدها مع خلانه ويلم فيها شمل الاصحاب من كتبة وشعراء ومغنين ، يجتمعون حول العقار ، يستمعون الى الغناء والشعر ، يقول فى هذه القصيدة :

71) « **العنوان** » : ج 2 ، ص 116 ـ 117 .

أيكتم مجلس عنى لعمرى وحامضه بأنفاسى يطيب
وما فى حضرتى لو شئت باس ولا ما فاتنى أمر غريب
وما اعراضكم عنى بسهل ففى مضمونه أنى الرقيب
[...] سأبرد بالملامة ما بقلبى وما الشكوى ؟ ففى قلبى لهيب
واسمح للحبيب بها ولكن على شرط له تعنو القلوب

ونجد هذه القصائد مجموعة فى كنش الرياحى ، وبعضها نجده بالكنش المجموع رقم 16511 الذى يحتوى ايضا على الرسالة الادبية . قد أوردنا هذه الامثلة من شعره لابراز نزعته الشعرية، والاغراض التى تغلب عليه ، وهى فى أغلبها أغراض تقليدية .

اما نثر المناعى فهو يتجاوز بكثير شعره اتقانا وجودة ، ولم نعثر للمناعى ، عدا الرسالة الادبية ، الا على خمس رسائل موجودة بكنش رقم 17878 (72) ، ويمكن اعتبارها وثائق عن حياته ، خاصة فى المدة الحرجة التى أطرد فيها من الخدمة من ديوان الانشاء ، فكتب

72) كنش ، صاحبه مجهول ، تحت رقم 17878 . اشترته دار الكتب الوطنية أخيرا . انظر فيه :
أ ـ رسالة المناعى الى أمير لواء : ص : 3 ـ 4 .
ب ـ رسالة المناعى الى مصطفى خزندار : ص 4 ـ 5 .
ج ـ رسالة احمد بن ابى الضياف الى المناعى فى شان خطوبة ابنته : ص : 34 ـ 35 .
د ـ جواب المناعى على هذه الرسالة : ص : 35 ـ 36 .
هـ ـ رسالة المناعى الى الشيخ على الرياحى : ص : 39 ـ 40 .
و ـ جواب على الرياحى للمناعى : ص : 40 .
ز ـ رسالة من انشاء المناعى فى أمر ادارى : ص : 80 ـ 81 .
ص 27 و 28 .

رسالتين (73) الاولى الى مصطفى خزندار والثانية الى أمير لواء العسة فرحات ، يطلب منهما خدمة . وتغلب على الرسالة الاولى صبغة التبكى والتوجع ، اذ بقى أعواما بدون عمل ، فى بؤس وشقاء هو وأولاده وعياله ، وأسلوبها لا يختلف كثيرا عن أسلوب رسالته الى أحمد باى .

لكن أهم هذه الرسائل هى الرسالة التى وجهها الى أحمد بن أبى الضياف فى شأن خطوبة ابنته يوكله فيها لينوب عنه فى عقد قرانها، اذ تربيت فى حجر خالها .

وهذه الرسالة تفيدنا عن علاقة الكاتب بصهره قبل تأزمها وتعكرها ، خاصة وأنها ملآى بعبارات التقدير والاجلال والتعظيم ، ويقر له فيها بالفضل والكرم والاحسان :

« والحمد لله الذى ذخركم لها كنزا ، ووهب لها من جنابكم شرفا وعزا ، وحيث قرنتم رأيى برأيكم ، وضربتم لى بحظ من ولايتكم عليها وولائكم ، وان كنت لا أزن نفسى بالسنجة التى بها وزنتنى ، ولا أزنها بالفضل الذى زينتنى ، فذلك منكم محض فضل على ونعمة، وجوابى عنه طاعة وخدمة » (74) .

والرسالة الرابعة وجهها الى الشيخ على الرياحى يستدعيه فيها الى مجلس انس :

73) تعرضنا الى هاتين الرسالتين فى ترجمة حياة المناعى ، انظر اعلاه ص 27 و 28 .
74) سنتعرض الى هاته الرسالة فى الفصل الذى نعقده لاحمد بن ابى الضياف . انظر المقدمة أسفله : ص : 49 ـ 50 .

« حيث جعل ما يطرب الارواح ، ويجلب الافراح ، من مغنين ذكى عند النظراء ذكرهم ، وهالة أخوان [سطح] بدرهم ، وكأس انس آنست مديرها ، وزهرة فكاهة اليك شميمها وعبيرها ، منزهة عن المكرات النسوانية وتوابعها » .

أما الرسالة الاخيرة فهى من انشائه فى أمر ادارى لاحمد باى وتطلعنا على اسلوبه النثرى الادارى عندما كان كاتبا بديوان الانشاء .

والرسالة الادبية التى بين أيدينا والتى وجهها الى الباى ، هى رسالة تدخل فى باب فن الرسائل التى يتفنن فيها أصحابها فى الاساليب الانشائية مظهرين ابداعهم وبراعتهم .

يعرف صاحب صبح الاعشى (75) هذا النوع بقوله :

« المراد فيها ، أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد ، أو مدح وتقريض ، أو مفاخرة بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى . وسميت رسائل من حيث ان الاديب المنشىء لها ربما كتب بها الى غيره ، مخبرا فيها بصورة الحال ، مفتتحة بما تفتح به المكاتبات ، ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها » .

ورسالة المناعى من هذا النوع ، كتبها لحكاية حاله ، ووجهها

75) « **صبح الاعشى فى صناعة الانشا** » . لابى العباس احمد بن على القلقشندى . ط . وزارة الثقافة والارشاد القومى المصرية : د . ت : ج 14 ، ص : 138 .

للمشير الاول ، حاكم تونس ، أحمد باى ، يمدحه فيها ، ويشكو من أعدائه وحساده هاجيا اياهم ، كاشفا عن أمرهم . ولها غايتان :

الغاية الاولى هى التقرب من باى تونس ، ومدحه والتمسح على أعتابه لطلب خدمة يرتزق منها ولينصفه الباى من أعدائه .

والغاية الثانية ، التعرض الى أعدائه العديدين بالهجاء والذم والشتم ، والرد على وشاياتهم المختلفة ، وتبرئة نفسه مما يصمونه به من المساوى والمثالب والمدافعة عن نفسه وعرضه .

فالرسالة هى أولا رسالة وفاء وولاء للمشير الاول ، وعلامة طاعة ، وطلب خدمة ، يصور فيها المناعى تعلقه بالباى تصويرا مؤثرا (76) ، فهو أمله الوحيد ، ورأس ماله ، وناصره على أعدائه فى هذه الفوضى السائدة فى القصر ، بين دسائس تحاك ، ومؤامرات تدبر ، ووشايات تنقل ، وأخلاق زائفة تعتمد الكذب والنفاق والتملق والمراوغة والمماطلة .

مدح المناعى الباى مدحا رصينا ، موضوعيا ، لم يفرط فيه ولم يفرط ، ووصفه بصفات الملك العاقل العادل ، البصير بالامور ، الرصين ، المتأنى فى الحكم (77) . وقد توصل المناعى لغايته ، فى الدفاع عن نفسه ، بتوخى أسلوب واقعى ناضج ، اعتمد فيه على المحسنات اللفظية والمعنوية ، واستعمل فيه الطرق البلاغية ببراعة

76) انظر « **رسالة المناعى** » : الصفحات الاولى خاصة : ص : 85 – 86 ، 158 ، 159 .

77) انظر ديباجة « **رسالة المناعى** » : ص : 78 – 79 .

ومرونة من سجع وجناس ، ومطابقة واقتباس ، واستشهاد بالشعر والنثـر (78) . ويمكن أن نلاحظ ملاحظتـين اثنتين تتعلقان بنثـر المنـاعـى :

1) انه نثـر فنى ذو صبغـة واقعيـة ، لا تكلف فيه ولا تصنع ، ولا زخرفة لغوية ولا ترصيف زائف للكلمات والعبارات ، وانما هو صادر عن عاطفة حارة ، صادقة ، ويعبر عن واقع حى ، ضمنه كاتبه كلمات عامية كثيرة : (بشكير ، حصير ...) (79) ، وأدخـل فيـه تعابير عامية شعبية مثل (يدور مع العلة) (80) ، واستغـل فيـه تعابير فقهية ، والروح الجدلية السائدة فى الفقه ليؤدى ما بنفسـه من خواطر وأحاسيس وأفكار مثل : «وهل يرد حكم أصله الاجماع» (81) . كما انه أورد امثالا كثيرة ، وأسبغ على أسلوبه طابعا تونسيا ، جدد به اللغة ، فنراها فى قلمه أداة يطـوعها للتعبير عن مقاصـده ومراميه وأداء ما يجول بنفسه من عواطف ومشاغل وأفكار ، ونـراه يتصرف فى اللغة ، ويبدع فيها ، ويبلغ الذروة فى التعبير الفنـى فى بعض المقاطع (82) ، بعد أن كادت العربية تجمد فى عهد الاتراك .

2) والملاحظة الثانية ترجع الى طريقته فى الهجاء ، وهى طريقـة تعتمد خاصة على التهكم والسخرية وتهويل صفات المهجو ، وهو هجاء لاذع ، يستهدف ضحيته حسيا ومعنويا ، حتى يبلغ أقصاه ، ويبلـغ

78) هذه المحسنات اللفظية والمعنوية تتخلل كامل الرسالة .
79) انظر « **رسالة المناعى** » : ص 144 ، 151 .
80) نفس المرجع : ص : 96 .
81) نفس المرجع : ص : 98 .
82) نفس المرجع : ص : 132 . مثلا : والقدر يضحك من ورائى .

القمة . ويتجلى فى هذا الهجاء سخط المناعى على الطبقة الحاكمـة ، المتصرفة فى الاموال والعباد . وقد تفنن المناعى فى الهجاء ، وتوخى الاسلوب الكاريكاتورى واجتهـد فى الادلاء بحججه خاصة فى بيان أمراضه ، ووصفها وصفا قيما .

ولهذه الرسالة قيمة كبيرة ، فهى تصور لنا تصويرا أدبيا دقيقـا العلاقات بين شخصيات ديوان الانشاء ، وتصف لنا الاجواء النفسانية والاجتماعية التى كانت تسود البلاط ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشـر بتونس ، زيـادة على ما فيها من اشـارات الى بعض الاحداث التونسية .

وهى رسالة طريفـة وجريئة ، تتمثـل طرافتها وجـرأتها فى أن محررها تهجم فيها على شخصيات بـارزة فى عصره ، لها مكانتهـا وجاهها ، ومركزها الموطد ، فهجاها الهجاء المر ، وأحيانا المقـذع ، وتصدى لها بالتقريع والتشنيع ، ونذكر على سبيل المثال أحمد بن أبى الضياف ، ومحمود ابن عياد ، وأباه محمد ابن عياد ، والباجى المسعودى وغيرهم . والرسالة تمثل من جهـة أخرى ، مرحلـة من مراحل النثر التونسى فى أواسط القرن التاسع عشر بعد أن كاد يبلغ طور الجمود والتحجر من جراء حكم الاتراك .

وهى أخيرا قطعة نثرية تمثل مدى ما وصل اليه النثر الفنى فى تونس من جودة وحذق وتفنن وتعبير واقعى حى ، وهى بالتالى ومضة من ومضات الفكر التونسى وعلامة من العـلامات الدالة فى تاريـخ النثر بتونس .

وللباحث أن يتساءل متى ألفت هذه الرسالة ؟ لكننا لا نعلم بالضبط متى كتبت ، كما اننا لا نجد تاريخ نسخها الا فى نسخة «ب» وهو سنة 1307 هـ .

والرسالة موجهة الى أحمد باى المتوفى سنة 1855 ، وقد كتبها فى آخر حياته ، لما عطل عن العمل وأطرد من ديوان الانشاء .

وفى الرسالة اشارة الى مرض الباى (83) ، لكن لا نعلم هل هو مرض الوباء ، (الريح الاصفر أو الكوليرة) ، الذى ظهر بتونس فى شهر ديسمبر 1849 (84) ، فتكون الرسالة مكتوبة بعد هذا التاريخ ، بينه وبين عام 1855 سنة وفاة الباى ، أو هو الفالج الذى أصاب الباى فى 31 جويلية 1852 (85) فتكون الرسالة مكتوبة بين سنة 1852 و 1855 سنة وفاة الباى .

---

83) انظر « **رسالة المناعى** » : ص : 135 .
84) « **الاتحاف** » : ج 4 ، 128 ـ 136 .
85) نفس المرجع : ص : 140 .